﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين اليقين بنفْعِ الله وحدَه وضُرِّه، وبين مصيرِ منْ آمن، وجزاءِ منْ كفرَ

الآيةُ جوابٌ ثانٍ عن فرح المنافقين بمصائبِ المؤمنين بما يُخرسُ ألسنتَهم، ويُزيلُ فرحتَهم[1]؛ إذ تتنزَّل منزلةَ الإيضاح، والكشف، والبيان لما تضمَّنته جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2]. فلمَّا تبيَّن لهم أنَّ سرَّاءهم وضرَّاءهم لهم خيرٌ من حيث إنَّ الرِّضا بمرِّ القضاء موجبٌ لإقبال القاضي على المقضيِّ عليه بالرَّأفة والرَّحمة، صرَّح بذلك في قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرَبَّصُونَ﴾. التَّربُّص بالشَّيْء هُوَ انتظارك بِالرَّجلِ خيرًا أَو شرًّا يحلُّ بِهِ[4]. فـ" الراء والباء والصاد أصل واحد يدلُّ على الانتظار"[5]. والمُكْث، والانْتِظار بالشَّيء، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا يُنتظر زوالُه، أو حصولُه[6]، وسائر ما جاء في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو بمعنى الثَّبات انتظارًا مع حدَّة[7]، وشيء مِنَ الترقُّب والتَّوتُّر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/314.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (ربص).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/745.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحقيقُ إحدى الحُسنيَين أمنيَّةُ المؤمنين، والدّخرُ والخسارُ للكفرة المارقين

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المنافقين الَّذين وصفتُ لك صفتَهم، وبيَّنت لك أمرَهم: هل تنتظرون بنا إلَّا إحدى الخلَّتين اللَّتين هما أحسن من غيرهما: إمَّا ظفرًا بالعدوِّ، وفتحًا لنا بما فيها من الأجر والغنيمة والسَّلامة، وإمَّا قتلًا من عدوِّنا لنا، ففيه الشَّهادة، والفوزُ بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، وكلتاهما ممَّا نُحبُّ، ولا نكرهُ، ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم اللَّه بعقوبةٍ من عنده عاجلةٍ، تهلككم، أو بأيدينا؛ فنقتلَكم؛ فانتظروا إنَّا معكم منتظرون ما اللَّه فاعلٌ بنا، وما إليه صائرٌ أمرُ كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْل في الآيةِ:

الآيــةُ بيـانٌ لما قبْلَها، وفيها إبـــرازُ كـمـالِ العنايةِ بالمأمورِ به

تُنَزَّلُ الآيةُ منزلةَ البيان لما تضمَّنتْه جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في الآيةِ السَّابقةِ هو علَّةُ فصلِها عنها، والعُدولُ عن عطفها عليها، والمبين هو إجمال ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التّوبة: 51][2]. فالجملةُ إن كانت من تمامِ الكلامِ المأمورِ به؛ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أوَّلًا من الفرق في السِّياقِ؛ إذ فيها نوعُ بيانٍ لما أُبهِم في الجوابِ الأوَّل، وكشفٌ لحقيقة الحالِ بإعلام أنَّ ما يزعُمونه مضرَّةً للمسلمين من الشَّهادة أنفعُ مما يعُدُّونه منفعةً من النَّصر والغنيمةِ[3].

عِلَّةُ الافتتاحِ بفعل القولِ ﴿قُل﴾:

اللهُ تعالى فوق الجميعِ، ولا يكونُ نفعٌ أو ضررٌ، إلّا بحكمةٍ وقدَرٍ

أمرَ اللَّه تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم هذا القولَ، ولم يسندْهُ تعالى إلى نفسه؛ لأنَّه فوق الجميعِ، إنَّما جعلَ الرَّسولَ يُسنِده

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.

إلى نفسه؛ لأنَّه من أحد الفريقيْن المتربِّصيْن، وإن كان الله تعالى مع المؤمنين[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ العطف بالواو:

دفـعُ الـتّـوهُّـم بتلافي العطفِ، وتأكـيـدِ مصدرِ الإصابةِ بالخير أوِ الشّرّ

لم تُعطَفِ الآيةُ بالواو، وهو من تمام قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ لأنَّك إذا قلتَ: إنْ جاءك زيدٌ؛ فأعطِه درهمًا، أو أكرمه؛ اقتضى الجمع والإفراد، وهنا لو عطف بالواو؛ لتُوهِّمَ أنَّه يخرج من عهدته، بأن يقولَ: هم أشدُّ الشَّيئيْن فقط[2].

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ إلى الاستفهام:

الاسـتـفـهـامُ يَقتضي الموافقةَ، ويُـسـفـرُ عـنِ المعنى في إطار تنْويعِ الأسلوبِ

وعدل من صريح النَّفْيِ بـ(لن) في الآية السَّابقة إلى مجازِه المستفادِ منَ الاستفهام؛ لأنَّ الاستفهامَ يقتضي الموافقةَ، إذ لَا يقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا مَنْ يعلم أنَّه يوافقك[3].

إيثارُ حرفِ الاستفهام (هل):

تربّصُ المؤمنين لإحـــــدى الـحُـسـنَـيـْيْن، مقابلَ تربُّصِهم لأعدائِهم بأحدِ الهلاكَيْن

أوثِرَ استعمال حرف الاستفهام (هل) إشارة إلى تحقيق مدخولها: إمَّا النَّصر المؤزَّر، وإمَّا الفوزُ بأسمى أماني المجاهدين في سبيل الله، وأعلى درجاتهم ألا وهي الشَّهادة[4]. والنَّفي بـ (هل) ليس نفيًا محضًا، بل هو استفهامٌ أُشرِب معنى النَّفي المصحوب بالتّعجُّب والاستنكار، "فقوله تعالى مثلًا: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ يختلف عن قولنا: (ما تربَّصون بنا إلَّا إحدى الحُسنين) فإنَّ الأُولى ليست نفيًا خالصًا، فإنَّ فيها من التَّحدِّي والاستخفاف ما لا يؤدِّيه النَّفي المحضُ"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/243.

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ وحقيقتِه إلى مجازِه:

التّعبيرُ بالاستفهامِ بإشراكِ المخاطَبِ في الأمر، بانتظارِ الجوابِ منه

وعدلَ من صريحِ النَّفي وحقيقتِه إلى مجازِه؛ لأنَّ الاستفهامَ يَقتضي أنَّ المُسْتَفْهِمَ موافقٌ، ألا ترى أنَّه لَا يجابُ بنعم، ولا بلا، فلا تقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا لمن تعلم أنَّه يوافقك، فإن لم يوافقك، قلت: ما زيدٌ إلَّا قائم، والمنافقون يوافقون على أنَّهم ما يتربَّصون بهم إلَّا لأحد أمرين[1]. ثم إنَّ النَّفيَ الصَّريح إنَّما هو إقرارٌ من المخبر، فإذا قلت: (ما تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسنيَيْن)، كان هذا إخبارًا من المتكلِّم، أمَّا إذا قلتَهُ بطريق الاستفهام، فإنَّ المقصودَ إشراك المخاطَب في الأمر، فهو يريدُ الجواب منه، فالنَّفي ابتداءٌ يفيد أنَّ المتكلِّم يقول الأمر من نفسِه، وأمَّا في الاستفهام؛ فإنَّه يدع ذلك للمخاطَب ليقولَهُ[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ:

توبيخُهم والإنكارُ عليهم التّربّصَ بأذَى المؤمنين

الاستفهامُ في الآية للتَّقريع والتَّوبيخ مع الإنكارِ، وهو مستعمَلٌ في النَّفي بقرينة الاستثناء، ومعنى الكلام توبيخُهم، وتخطئة تربُّصهم؛ لأنَّهم يتربَّصون بالمسلمين أن يُقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن يُنصروا، فكان المعنى: لا تتربَّصون بنا إلَّا أن نُقتلَ أو نُغلبَ، وذلك إحدى الحُسنيين[3].

والإنكارُ الحصريُّ ظاهرٌ فيه؛ فليس أمام المؤمنين في جهادهم إلَّا النَّصرُ أو الشَّهادة، وهما أمران بلغا الغايةَ في الفضل والكمال، وقد يترتَّبُ على هذا إفحامُ الخصم، وتبكيتُهُ، وردِّ كيده في نحره[4].

من دلالاتِ الاستفهامِ التَّسهيلُ والتَّخفيفُ

والاستفهامُ مُستعمَلٌ أيضًا في التَّسهيلِ والتَّخفيف، أي: هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: الشَّهادة وهي لطيفة النّزع، أو النَّصر وهو سَليلُ السَّعة والتيسير؟

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.

ويحتمل الاستفهامُ أيضًا التَّقريرَ والتَّحقيق، أي: هل تربَّصون بنا أيُّها الجاهلون إلَّا إحدى العاقبتيْن اللَّتيْن كلٌّ واحدة منهما حُسْنى العواقب وفُضلاها: النُّصرةُ المضمونة للجماعة، والشَّهادةُ المكتوبة لبعض الأفراد[1].

من دلالاتِ الاستفهامِ التَّقريرُ والتَّحقيقُ

إيثارُ لفظِ التَّربُّصِ على الانتظارِ:

التَّربُّص: طولُ الانتظار، ويُسمَّى المتربِّص بالطّعام وغيره متربِّصًا؛ لأنَّه يُطيل الانتظار لزيادة الرِّبح[2]، وهو التمكُّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا[3]، والتمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يُتمنَّى وقوعُهُ[4]، والتمسُّك بما يُنتظر به مجيءُ حينِهِ، ولذلك قيل: فلانٌ يتربَّص بالطعام؛ إذا تمسَّك به إلى حين زيادة سعره، وكثرَ اقترانُه بالشَّرِّ، يُقال: فلانٌ يتربَّص بفلان الدَّوائر، وإذا كان ينتظرُ وقوعَ مكروهٍ به[5].

التَّربُّصُ: طولُ الانتظار، مُقترنًا بالشَّرِّ والبَوارِ

وأكثرُ استعماله؛ أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، ولذلك كثرَتْ تعديةُ فعل التربُّصِ بالباء؛ لأنَّ المتربِّص ينتظر شيئًا مصاحِبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظارُ[6].

بيانُ التَّعبيرِ عنِ التَّربُّص، بصيغةِ التَّفعُّلِ:

والتَّربُّص: الانتظارُ انتظارًا عظيمًا[7]، تفعُّلٌ من الرَّبص حُذِفَت إحدى التَّاءيْن في تربَّصون، وهذا الحذفُ يؤذِنُ بتعجُّلهم خبرَ ما يحسبونه أذًى للمؤمنين، وتلهُّفهم إلى سماعه فرحين به.

شِدَّةُ انتظارهم، أَمارةُ تعجُّلِهم خبرَ الأذَى

(1) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.
(4) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.

بَلاغةُ الاستثناء:

مآلُ مَنْ ضحّى بنفسِه في سبيل الله، فوزٌ محقَّقٌ بإحدى الحُسْنيَيْن عند مَولاه

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ مُسْتَثْنَى من عموم الأحوال التي في سياق النَّفي؛ إذ (هل) للاستفْهَام الإنكاريّ[1]، والجملةُ تفيدُ الحصرَ، أي: لا شيءَ يُنتظر لنا غيرُ هاتيْن العاقبتيْن ممَّا كتب لنا ربُّنا، وأنتم تجهلون[2]. فـ" قُصِرَ الموصوفُ، وهو مآلُ المجاهدين في سبيل الله تعالى على صفة الحُسن البالغ، والكمال الكريم"[3].

عِلَّةُ الإتيانِ بأداة الحصْرِ، مع الحُسنيَيْن دونَ الإصابةِ:

حالُ المنافقين غيرُ مُنحصرٍ، في أنْ يُصيبَهمُ العذابُ

أتى في الأوَّلِ بأداة الحصر دون الثَّاني، فقال: ونحن نتربَّصُ بكم من غير حصْرٍ؛ لأنَّ المسلمين لا يخرج حالهم عن إحدى الحُسنيَيْن: النَّصرِ أو الشَّهادةِ، أمَّا المنافقون؛ فحالهم غيرُ منحصرٍ في أنْ يصيبَهم العذاب؛ إذ قد يقولون: فلا يصيبهم العذابُ بوجهٍ، أو أن يُسْلِمُوا، فيَحْسُنَ حالهم[4]؛ "لجواز أنْ يتُوبُوا عن نفاقهم، ويصحَّ إيمانهم، وقد تاب بعضهم، واعترفوا بما كانوا عليه بعد ظهور أمرِهم، كالَّذين أخبرَهم النَّبيُّ بما ائتمروا به من اغتياله ﷺ، ومن المعقول أن يكونَ أكثرُ الباقين قد تابوا بعد أنْ أنجزَ اللّهُ لرسوله جميعَ ما وعده به، ووقع ما كانوا يحذرونه من تنزيل سورةٍ تُنْبِئُهم بما في قلوبهم، ومنها فضيحتُه تعالى لزعيمهم الّذي مات على كفره، ولو ذكرَ ذلك في التَّنزيل بصيغة الحصرِ؛ لكان خبرًا بخلاف ما سيقع، وهو هلاكهم بكفرِهم بدون الشَّرط الّذي بُيِّنَ"[5].

بَلاغةُ الاحتباكِ:

الحذْفُ لإثباتِ، من براعةِ النَّظْمِ في السّياقِ القرآنيّ

في الآية فنُّ الاحتباك؛ إذ حذفَ أوَّلًا الإصابةَ للدَّلالة عليها

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.
(5) رضا، تفسير المنار: 10/415.

بما أثبت ثانيًا، وحذفَ ثانيًا إحدى السَّوْءَيَيْنِ للدَّلالة عليها بإثبات الحُسنيَيْن أوَّلًا[1].

وَجْهُ تأنيثِ لفظِ الحُسْنى:

وجهُ التأنيث في الحسنى؛ لكونها صفةً للعاقبة، ويجوز كونُها صفةً للخصلة أو الحالة، وكونُها صفةً للعاقبة أمسُّ بالمقام، فإنَّ الانتظارَ يلائمُ العاقبةَ[2].

الانتظارُ يُلائمُ العاقبةَ، ممّا يُناطُ في المنتهَى بالأجيالِ المتعاقبةِ

بيانُ وجْهِ الأحسَنيَّةِ بين المصيرَيْن:

الحُسْنيان مُثَنَّى الحسنى، وهي اسم التّفضيل للمؤنَّث، ولذلك تقتضي التَّفضيلَ بأنَّها أحسنُ العواقب، لكنَّهما ههنا مستويان؛ فالمقصودُ بيانُ أحسنيَّةِ كلٍّ منهما مع جميع ما عداه من العواقب الكائنةِ في الحروف، ولا يلزم أن يكونَ كلٌّ منهما أحسنَ من الآخر من وجهٍ، ويجوز أن يكونَ أحدُهما أفضلَ، وهو الموتُ مجاهدًا[3].

القصدُ بيانُ أحْسَنيَّةِ كلِّ مصير، وهو قدرٌ محتومٌ لا مفرَّ منه

بَلاغةُ الكنايةِ، في التَّعبيرِ عنِ الحُسْنيَيْن:

كنَّى عنِ التَّعبيرِ بالشَّهادةِ، أو النَّصرِ بلفظ ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾، لما في الوصف من تشريفٍ، وتكريم، فالتَّعبيرُ بإحدى الحسنيَيْن عَلَى إطلاقه مع أنَّ المُرَاد (النُّصرة أو الشَّهادة)، فيه ما لا يخفى من التَّفْخيم والتَّنْبيه، عَلَى أنَّها ممَّا لا يدخل تحت وصفِ الواصفين[4]، ففي الأولى إحرازُ الغنيمة، والظَّفر بالأعداء، وفي الثّانية إبقاءُ الذِّكْر والفوز بنعيم الآخرة[5].

في الوصْفَيْن تشريفٌ وتفخيمٌ وتنبيهٌ

عِلَّةُ وصْفِ حالَتَي المؤمنين دونَ المنافقين:

وصفَ حالتَي المؤمنين بالحُسْنيَيْن، وعيَّنَ حالتَيْ حالِ المنافقين،

لم يُذكِ المنافقون كُنْهَ الحُسْنيَيْن، ولا أنَّ الشَّهادةَ حياةٌ أبديَّةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/482 - 483.

ولم يصفْهما بـ(السَّوءَتَيْن)، أو(السَّوءَيَيْن) تثنية (سَوْءَى)، مؤنَّثُ (أسوأ) كحُسنى؛ لأنَّ المنافقين كانوا يزعمون أنَّ موتَ أحد المؤمنين ليس بِحَسَنٍ، وكذلك ظَفَرُهم بالمؤمنين، فعبَّر عن هذيْن الوصفيْن الأخيريْن بالحُسنيَيْن، ولما كان نفسُ الوصفيْن الأخيريْن غيرَ قبيحيْن عند المنافقين؛ لم يحتج إلى وصفها بالقبيحيْن اكتفاءً بنفْيهما[1].

العُدولُ عن المقابلة، لغرَضِ التَّخصيصِ، والتَّعيين:

غيَّرَ الأسلوبَ مغادرًا حسنَ المقابلة؛ لكونِ السُّوء وصفًا مشتركًا بين جميع القبائح؛ فعدل إلى ما المُرَاد من التَّفْصيل والتَّعيين، لانتفاء نُكتة الإبهامِ في الجملة[2].

السّوءُ وصفٌ مشتركٌ بين جميع القبائحِ المعهودةِ لدى العُصاةِ

بَلاغةُ العطفِ بالواو:

وجملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ معطوفةٌ على جملة الاستفهام؛ عطفَ الخبر على الإنشاء: بل على خبرٍ في صورة الإنشاء، فهي من مَقول القول، وليس فيها معنى الاستفهام، والمعنى: وجودُ البوْن بين الفريقيْن في عاقبة الحربِ في حالتَي الغلبةِ والهزيمة[3].

بين الفريقين بَونٌ شاسِعٌ، في عاقبةِ الحرْبِ

نُكتةُ تقديمِ الضَّميرِ ﴿وَنَحْنُ﴾:

تقديمُ الضَّمير (نحن) في قوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ عَلَى الخبر الفعلي، إمَّا للحصر؛ فيكونُ تغييرُ الأسلوبِ للتَّفنُّن الَّذي من شُعَبِ البلاغة، وإمَّا لتقوية الحكم فقط، فأمْرُ التَّغيير واضح[4].

حَصرَ التّربُّصَ بهم، وقوَّى الحُكمَ، لمزيدٍ منَ البيانِ والإيضاحِ

سِرُّ التَّعبيرِ عن تربُّصِ المؤمنين، بالجملةِ الاسميَّةِ:

وجُعِلَتْ جملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسميَّةً؛ فلم يَقُلْ: (ونتربَّص بكم)، بخلاف الجملة المعطوف عليها: لإفادة تقويّة التربُّص ثباتًا، وقوَّةَ رجاءٍ، وديمومةَ حالٍ.

التّربُّصُ المذكورُ ثابتٌ على الدّوام، في كلّ العصورِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224 - 225.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.

بلاغةُ الكنايةِ:

تقويةُ التّربُّصِ، تُفيدُ قوّةَ الرَّجاءِ

وجملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ كنايةٌ عن تقوية حصول المُتربَّص؛ لأنَّ تقوية التَّربُّص تفيد قوَّةَ الرَّجاءِ في حصول المتربَّص؛ فتفيد قوَّةَ حصوله، وشدَّةَ وقوعِه، وهو المُكنَّى عنه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بشِبْهِ الجملةِ ﴿بِكُمْ﴾:

نـزولُ العـذابِ بهم، هو جزاءٌ لِفعلِهم

عبَّرَ بشبْهِ الجملة ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ما ينزل بهم عقابٌ في مقابلِ ما حَكى عنهم في قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ:

الكلامُ مخصَّصٌ لحدَثِ الإصابة فحَسْبُ

المصدر المؤوَّلُ يفيدُ الدَّلالةَ على الزَّمن، بخلاف المصدر الصَّريح، ودخولُهُ على المضارع ﴿يُصِيبَكُمُ﴾ يدلُّ على الحال، أو الاستقبال، فضلًا عن دلالته على مجرَّدِ معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3]. فالتَّربُّصُ أن يصيبَهم العذابُ بالمصدر المؤوَّل مخصَّصٌ في حدث الإصابة حسبُ، ولو عُبِّرَ عنه بالمصدر الصَّريح (إصابتكم)؛ لاحتملَ الكلامُ معاني التَّربُّص بكيفيَّات الإصابة، وحالاتها، سرعتِها، أو بُطئِها...إلخ، وهو ما لا فائدةَ فيه في هذا الموضع؛ إذِ المقصودُ الحدثُ.

وَجْهُ إظهارِ اسْمِ الجلالة (الله):

تهويلُ عذابِهم المرتقبِ، جزاءُ الانحراف وسوءِ الأدبِ

أُظهرَ لفظُ الجلالة (اللّه) في موضع العذابِ، وأكَّدَ إصابتَهم به ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ تفظيعًا لهذا العذاب المُرتقب، والعقاب المستحقِّ، وتهويلًا لشأنه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) السّامرائي، معاني النّحو: 147 - 148.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.

تَوجيهُ التَّنكيرِ، في لفظِ ﴿بِعَذَابٍ﴾:

زيادةُ التَّفظيعِ، وتنويعِ العذاب، في سياقِ الآيةِ البليغةِ

نكَّرَ العذابَ في قوله: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾؛ ليدلَّ على عموم معنى العذاب، وواسعِ مُحتملاته، واستغراقه لجميع صنوفِهِ؛ كالموت بأخَذاتِ الأسف، أو نازلة منَ السَّمَاء كصاعقة ثمودَ وريحِ عادٍ، ويحتمل أن يكون توعُّدًا بعذاب الآخرة، أو يريد أنواع المصائب والقوارع[1].

تَوجيهُ إضافةِ العذابِ إليه تعالى:

إظهارُ الله تعالى غضبَهُ، على أهل النّفاقِ والكفرِ، للتّخويفِ منَ المصير

وإضافةُ العذابِ إليه ﷻ، ينزلُه من عندِه فيه إظهارٌ لغضبه تعالى، وسخطِه عليهم، الّذي يبوؤون به، كما باءَ من قبلُ إخوانٌ لهم في النِّفاق من اليهود ومَنْ يواليهم، والأمر الثّاني عذابٌ من المؤمنين يُنزلونه ظافرين بهم، بتمكين الله تعالى منهم[2].

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾:

تحتملُ العنديَّةُ تنوُّعَ العذابِ المتوقَّعِ

وكونُه من عنده تعالى كنايةٌ عن كونهِ منه جلَّ شأنُه بلا مباشرة البشر، ويُظهر ذلك المقابلةُ بقوله سبحانه: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[3]، وتحتملُ عنديَّتُهُ متنوِّعَ التَّأويلات، ومتعدِّدَ الدّلالات: غضبًا، وسخطًا، ونوعَ عذاب سيحلُّ بهم.

توجيهُ العطفِ بـ(أو):

في تغايُرِ العذابَيْن مزيدُ ذمٍّ، للتّذكيرِ بهولِ المصيرِ

العطفُ بـ (أو) يفيدُ فصْلَ العذاب الَّذي من عند الله منَ العذاب الَّذي يقعُ بأيدي المسلمين، ولو عطفَ بالواو؛ لاحتملَ أن تكون إصابةُ العذابِ واحدة، وسبيل تحقُّقها أيدي المسلمين، فالعطفُ بـ(أو) فرَّق صنفي العذاب.

دَلالةُ جملةِ: ﴿بِأَيْدِينَا﴾:

تأييدُ المؤمنين وتمكينُهم، من مُعاقبةِ المنافقين

قولُه تعالى: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، يريد: القتلَ[4]، والإشارةُ فيه إلى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44.

القتال - الَّذي يكون بالأيدي الّتي تبطشُ - إقرارٌ بقوَّة المؤمنين المؤيَّدة بنصر الله تعالى العزيز الحكيم، وتشريفٌ لهم بإظهار هذه القدرة والتَّمكين من لدن الله تعالى[1].

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ:

إطـلاقُ الـجُـزءِ، وإرادةُ الكلِّ، من بليغِ البيانِ

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتهُ الجزئيَّةُ؛ إذ أُطلق الجزء (الأيدي)، وأُريدَ الكلُّ، ولهذا الجزء مزيدُ اختصاصٍ بالعذاب؛ لأنَّ اليدَ هي الّتي تحملُ السِّلاح، وتستعملُه في المعركة[2].

تَوجيهُ الحذْفِ في جملةِ ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾:

إظهارهُم الكفرَ عِـلَّـةُ عـذابِـهـم بأيْدي المؤمنين

المرادُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾ تقدير معنى: (بعذاب كائن بأيدينا كالقتل على الكفر إن ظهر نفاقكم)؛ لأنَّ نفاقَهم إذا ظهر؛ كانوا كسائرِ المشركين في كونهم حربًا للمؤمنين[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُقتلون حتى يُظهروا الكفرَ، ويُصرُّوا عليه؛ لأنَّ المنافق لا يُقتل مع إظهاره الإيمانَ[4].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

عـاقـبـةُ المؤمنين الـحُـسـنَـى، وعاقبةُ المنافقين السّوءى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فاءُ الإفصاح المنبِّهةُ عن شرط مُقدَّر، أي: إذا كان هذا أمرنا، وأمركم في التَّربُّص، فتربَّصوا بنا ما هو عاقبتُنا وعاقبتكم؛ إن أصررتم على كفركم، وظهر أمركم، ممَّا نحن فيه على بيِّنة من ربِّنا، ولا بيِّنة لكم، فلن نشاهد إلَّا ما يسوؤكم، ولن تشاهدوا إلَّا ما يسرُّنا، وفي هذه الجملة تهديدٌ لهم بسوء عاقبتهم، وبيان حسن عاقبة المؤمنين، فالله تعالى بعزَّته ناصرُ جنده، وخاذلُ عدوِّه[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(4) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/74، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/415، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.

تَوجيهُ الأمرِ في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

ترقُّب المصيبةِ وانتظارُها، أشدُّ على النُّفوس وأنكى

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ للتَّحضيض المجازيّ، ومع إفادته قلَّةَ الاكتراث بتربُّصهم، إلا أنَّه يحتمل التَّهديد، والوعيد، والتَّحسير؛ لأنَّ ترقُّبَ المصيبة، وهولَ شرِّها أنكى على النُّفوس من وقوعها، فهو كالموت البطيء في شدَّةِ الإيلام[1].

دلالةُ المعيَّةِ:

المعيَّةُ للمشاركةِ في وصفِ التّربُّصِ المذكورِ في السّياقِ

المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ معيَّةٌ في التَّربُّص، أي: صائرون معكم في التَّربُّص، أو معيَّةٌ في زمانه، فهي للمشاركة في وصف التَّربُّص[2].

تَوجيهُ الفصْلِ في جملةِ الفاصلةِ:

وفُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ عن الجملة الَّتي قبلَها، ولم تُعطف؛ لأنَّها كالعلَّة للحضِّ[3].

الجملةُ علَّةٌ للحضِّ على التّربّصِ المذكورِ في السّياقِ

سِرُّ التّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

تنزيلُ غيرِ المُنكِرِ مَنزلةَ المُنكِرِ

وتأكيدُ الخبر بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ مَنْ يُنكرُ أنَّه يَتَرَبَّصُ بهم كما يَتربَّصُون به؛ لأنَّهم لغرورهم اقتصروا على أنَّهم يتربَّصون به ليروا هلاكَه، فهذا من تنزيل غير المُنْكِر منزلةَ المُنْكِر[4].

بَلاغةُ جِناسِ الاشتقاقِ:

في المحسَّنِ البديعيِّ شوقٌ وترقُّبٌ، إلى ما سيُصارُ إليه

ووجْهُهُ إعادةُ لفظة التّربُّص هنا أربع مرات: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾، و﴿نَتَرَبَّصُ﴾، و﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾، و﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾، وحُسنُ الإفادةِ في الجناس هنا يكمن في مؤدَّى الكلمة المكرَّرة لمعنى جديد، مع أنَّ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، و27/63.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/62.

الصُّورةَ توهمُ السَّامع في أوَّل أمرِها أنَّها لم تأتِ بجديد، وأنَّها مكرِّرةٌ لمعنى سابقتها، وفي ذلك متعةٌ للنَّفس، وحمْلٌ للسَّامع على الإصغاء، وميلٌ إلى المقيلِ[1]. وترقُّبٌ إلى ما سيقع، ولهفةٌ مع الانتظار، وشوقٌ إلى ما سيُصار، أضفاه لفظ (التَّربُّص) وتَكراره.

فنُّ التّعطُّف أوِ المشاركةِ[2]:

في التَّكرارِ تفنُّنٌ في النَّظْمِ، وبراعةٌ في البيانِ

فقد أتى التعطُّفُ من صدر الآية في قوله ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، ومن عجُزِها في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ مع تجنيس الازدواج[3]، فأفادَ الفنُّ ما أفاد الجناس من تشويقٍ إلى المآل، بما تحمله اللَّفظةُ المكرَّرة من معنى جديد.

بَلاغةُ المقابلةِ المعنويَّةِ:

الاستغناءُ بالمذكور، اقتصادٌ في اللَّفظ، وتكثيفٌ للمعنى

في الآية الكريمة مقابلةٌ معنويَّةٌ، خرج الكلامُ فيها مخرجَ إيجاز الحذف، فإنَّ مقتضى البلاغة أن يكونَ تقديرُ ترتيبِ اللَّفظ (قُلْ: هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيَيْن: أن يُصيبنا الله بعذاب من عنده أو بأيديكم، ونحن نتربَّص بكم أن يُصيبَكم الله بعذابٍ من عندِه أو بأيدينا)، فحُذِفَ لتوخِّي الإيجازِ تفسيرَ الحُسنيَيْن من الجملةِ الأولى، وأثبتَه في الجملة الثَّانية فرارًا من تكرار اللَّفظ وتكثيره، كما حذف الحُسنيَيْن من الجملة الثَّانية استغناءً بذكرها أوَّلًا طلبًا للاختصار والإيجاز، فحصلَ في الآية المقابلةُ والإيجاز والتَّفسير، فاكتملت فيها أربعةُ أضرب من البديع مع فنِّ التَّعطُّف[4].

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/441.
(2) تحرير هذا الفنِّ هو: أنْ يُعْلِنَ المتكلِّمُ لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردَّها بعينها ويعلِّقها بمعنى آخر، وهما مفترقتان، كلُّ لفظة منهما في طرف من الكلام.
(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 259، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360 - 361.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التربُّصُ، والانتظارُ، والتَّرقُّبُ، والتَّرصُّدُ:

وقـوعُ المصائبِ عـلى فـتراتٍ، مَـظِـنَّـةُ طـولِ الانتظارِ

تقدَّم أنَّ التَّربُّص: طولُ الانتظار في خيرٍ وشرٍّ، والثَّباتُ انتظارٌ مع حدَّةٍ، والتَّمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يتمنَّى وقوعه والتلبُّث في انتظاره طويلًا[1]، وأكثرُ استعماله أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، فالمتربِّص ينتظر شيئًا مصاحبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظار[2].

ورقبَ الشَّيءَ، وتَرَقَّبَ: انتظر، ورصدَ راقبًا متوقِّعًا، محترزًا، مراعيًا له وحاذرًا منه، وحارسًا له، وحافظًا[3].

والتَّرصُّدُ: الاستعداد للتَّرقُّب، مع تحفُّزٍ للأخْذ أو الإصابة[4].

والانتظارُ: طلبُ مَا يُقدَّر أَن يَقع، وهو مقرونٌ بما يقعُ فيه النَّظر، وَيكون في الخَيْرِ والشَّرِّ، وَيكون مَعَ شكٍّ ويقين؛ لأنَّ أصلَه من تقليب البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ[5].

ومن هنا يتبيَّن أنَّ التربُّص أنسبُ لسياق الآية من حيثُ إنَّ المصائب في الغالب لا تقع دفعةً واحدة، وإنَّما تقع على فتراتٍ، وذلكم مظنَّةُ طول الانتظار، مع دلالة الثَّبات الّتي تلمح بحتميَّةِ تحقُّق ما يُتربَّصُ به.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76، ورضا، تفسير المنار: 10/414، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربص).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (رقب).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رصد).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75 - 76، والرّاغب، المفردات: (نظر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»